# ٢ ـ فى الدُّعَاء

الفصل الأول

# يا رب

الدعاء هو الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير ، والابتهال إليه بالسؤال . وكل إنسان منا له حاجاته ومطالبه سلباً وإيجاباً . إنه يواجه فى هذه الحياة أموراً يرغب فيها ، فيدعو الله أن يحققها له . وأموراً يرهبها . فيدعو الله أن يصرفها عنه .

ولقد بين القرآن الكريم ، والسنّة النبوية الشريفة ، وأئمتنا الصالحون ، متناسقين مع كتاب الله وسنة رسوله – الوسائل التى تؤدى بالإنسان إلى أن يكون بمعزل عن الشر ، وإلى أن يكون دائماً فى مرضاة الله سبحانه ، يجيبه إذا طلب ، ويعيذه إذا استعاذ . إن الله سبحانه يقول :

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾[1] .

ويقول تعالى :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[2] .

ويقول سبحانه :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب .

(١) النحل آية . ٩٧ (٢) الأعراف آية . ٩٦ .

ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾[1] .

ويقول عز وجل :

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[2] .

ويقول سبحانه :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم ﴾[3] .

وبين رسول الله ﷺ الطريق الذى إذا سار فيه المؤمن انتهى به إلى حب الله له ، يستجيب له إذا دعا ، ويجيبه إذا سأل .

أخرج الإمام البخارى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال فيما رواه عن ربه :

« من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشيء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى

---

(١) الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٢) يونس الآيتان : ٦٣ – ٦٤ .

(٣) فصلت الآيات : ٣٠ – ٣٢ .

بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنَّه » .

وفى جانب المعصية - وأنها سبب للشقاء والكوارث تصيب الإنسان - يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة . ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ (٢) .

ويقول تعالى :

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه :

﴿ فلما نسوا ما ذكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه وتعالى :

---

(١) الشورى آية : ٣٠ .
(٢) فاطر آية : ٤٥ .
(٣) هود آية ١١٧ .
(٤) الأعراف آية : ١٦٥ .

﴿ فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

ويقول رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده : ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر »[2] .

إن هذا الحديث الشريف يرسم أصلاً من أصول التربية الإلهية والتربية الإلهية ، لا تسير فى مبادئها فوضى لا تحكمها قاعدة ، أو تسير فى مبادئها مصادفة لا تخضع لقانون ، كلا ! وإنما هى قواعد ذات مقدمات ونتائج ، والحديث الشريف يدل على أن جزاء الشر شر ، وأن آلام الإنسان ومصائبه إنما هى ثمار آثامه ومعاصيه .

وما من شك فى أن الله سبحانه يعفو عن الكثير :

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾[3] .

وإذا كان الله سبحانه يعفو عن الكثير تفضلاً منه وكرماً ، وإذا كان سبحانه رءوفاً بعباده رحيماً بهم - فإنه يحذرنا نفسه ، ويقول مثلاً فى جريمة من الجرائم التى حذر منها أكثر من مرة فى القرآن الكريم ، وهى

---

( ١ ) العنكبوت آية : ٤٠ .  ( ٣ ) فاطر آية : ٤٥ .

( ٢ ) رواه الطبرى وابن عساكر .

موالاة أعداء الله :

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة . ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير ﴾ (١) .

ورسول الله ﷺ يحذرنا أيضاً من عاقبة الظلم . فيقول فيما أخرجه البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه :

« إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

ولن يحول دون عقاب الله على المعاصى حائل من نسب أو جاه أو ثروة . فهذا نوح عليه السلام يشفع فى ابنه . فيقول بعاطفة الأب الفطرية :

﴿ رب ، إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ﴾ .

ويرد الله سبحانه على نوح وهو نبيه ورسوله قائلاً :

﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ (٢) فعمل السَّيئ فصل ما بينه وبين أبيه من صلة .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى معلماً ومربياً :

﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران آية ٢٨ . (٢ - ٢) هود آية ٤٦

ويضرب الله مثلاً للذين كفروا بامرأتين هما امرأة نوح ، وامرأة لوط فيقول :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾[1] .

لقد أغرق الله ابن نوح ، ودمَّر امرأة نوح غرقاً ، ودمَّر امرأة لوط بالخسف .

أما قارون : فإنه أعلن الانفصال عن الله ، وأراد أن يقوم بنفسه ، وجحد كل نعمة لله عليه وفضل . وأعلن - في تبجح سافر وفي كبرياء - أن الفضل فيما يتمتع به من نعمة يرجع إليه هو قائلاً عن ثرائه العريض :

﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ .

وكانت نتيجة ذلك ما عبر الله عنه بقوله :

﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين ﴾[2] .

روى الترمذي أن النبي ﷺ قال :

« لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » ثم قرأ :

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ .

---

(١) التحريم آية : ١٠ .  (٢) القصص آية : ٧٨ .

وإذا أصلح الإنسان ما بينه وبين الله ، تولاه الله برعايته . ويبدأ الصلح مع الله بأن يتجنب الإنسان نزغات الشيطان . يقول سبحانه :

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم ﴾[1] .

ومعنى النزغ فى هذه الآية الكريمة : وسوسة الشيطان بالسر على أى وضع كان . والملجأ فى أمثال هذه الحالات إنما هو الاستعاذة بالله ، فهو سبحانه وتعالى السميع العليم .

ولقد ورد فى معنى هذه الآية الكريمة آيات أخرى فى القرآن . يقول تعالى :

﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم ﴾[2] .

ويقول سبحانه :

﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون ، وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[3] .

ولقد روى الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل ، فاستفتح صلاته وكبر قال :

---

(١) الأعراف آية : ٢٠٠ .

(٢) الأعراف الآيتان : ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٣) المؤمنون الآيات : ٩٦ - ٩٨

« سبحانك اللهم وبحمدك ، تبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » ، ثم يقول :

« أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : من همزه ، ونفخه ، ونفثه » .

لقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم مع أنه ليس للشيطان عليه من سبيل ، ومع أنه قد استخرج حظ الشيطان من قلبه الشريف ، منذ البواكير الأولى من حياته حين شق جبريل عليه السلام عن صدره واستخرج حظ الشيطان منه . وما هذه الاستعاذة منه ﷺ إلا امتثالا لأمر الله تعالى حين قال سبحانه :

﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾.

ورسول الله ﷺ ، يتبع أوامر الله سبحانه فى اليسير منها ، والعظيم ، ومادام الله قد أمر بالاستعاذة من الشيطان ، فهو صلوات الله وسلامه عليه ، يستعيذ منه مع عصمته ﷺ من أن يتأثر بالشيطان ، كما كان رسول الله ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم سبعين مرة ، أو أكثر من ذلك ، مع عصمته من الذنوب .

واستعاذته ﷺ ، وتوبته إنما هما نوع من العبادة ، والله سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب هؤلاء الذين يلجئون إليه فى كل آونة ، ويرجعون إليه فى كل أمر .

أما فيما يتعلق باستعاذة المؤمن من الشيطان ، فإنها لا تكون بمجرد ألفاظ تخرج من الشفاه لا تتجاوزها ، وإنما هى جهاد من المؤمن متتابع يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح .

والواقع أن التوبة إذا كانت خالصة نصوحاً فإنها تكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ، ويستخرجان حظ الشيطان منه ، والواقع أيضاً أن التوبة إنما هى اللبنة الأولى فى سبيل القرب من الله ، وفى طريق البعد عن الشيطان ، ومن أجل ذلك اعتبرها سادتنا الصوفية ، واعتبرها الصالحون – على مر العصور – الخطوة التى لا مناص من تنفيذها إذا أراد الإنسان أن يصطلح على الله سبحانه . ولأهميتها الكبرى فى الطريق إلى الله حث الله عليها بشتى الوسائل ، وفتح بابها على مصراعيه :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾[1] .

روى النسائى من حديث معاذ بن جبل ، قال : استب رجلان عند النبى ﷺ ، فغضب أحدهما غضباً شديداً ، حتى تخيل إلى أن أحدهما

(١) الزمر الايات : ٥٣ – ٥٥ .

يتمزع أنفه من شدة غضبه ، فقال النبى ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب . فقال معاذ : ما هى يارسول الله ؟ قال : يقول :

« اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم » .

* * *

وإذا ما تجنب الإنسان نزغات الشيطان ، فإن من علامة صدقه فى ذلك أن يستقيم . عن أبى عمرو سفيان بن عبد الله فيما رواه الإمام مسلم قال :

قلت : يارسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا ، لا أسأل عنه أحداً غيرك .

قال ﷺ :

« قل آمنت بالله ثم استقم » .

وهذا الحديث الشريف من جوامع الكلم ، وهو يصور الدستور الدينى . ويرسم الطريق واضحة لمن يتطلعون إلى الهداية والأساس الأول ، الأساس الذى بدونه لا يكون الإنسان من المهتدين ولا من المفلحين : إنما هو الإيمان ، وكل عمل بدون إيمان لا يكون إلا هباءً منثوراً . يقول الله تعالى فى ذلك :

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوًّا كبيراً . يوم يرون الملائكة

لا بشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون : حِجراً محجوراً ، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾[1] .

إن الله سبحانه لا يتقبل عملا من غير مؤمن ، ومع الإيمان الاستقامة ، والاستقامة هى : لزوم طاعة الله تعالى ، إنها لزوم طاعته فيما أمر . يقول الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ فاستقم كما أُمرت ﴾.

وأوامر الله سبحانه وتعالى : تمثل الخلق الكريم ، أسمى ما يكون الخلق ، وتمثل العقيدة الحقة التى لا حق وراءها فى عالم الغيب أو عالم الشهادة ، وتمثل التشريع صورة صادقة لنفع المجتمع وصلاحه .

والاستقامة إذن لا تتأتى إلا إذا توفر الاتباع الصادق فى العقيدة ، وفى الأخلاق ، وفى التشريع .

بيد أن الحديث عن الاستقامة إنما يتجه عادة إلى الجانب الأخلاقى فى الإنسان .

ومما لا شك فيه ، أن الاستقامة تتنافى مع الرياء ، على أى وضع كان الرياء ، بل إن الرياء يحبط العمل مهما تسمى هذا العمل باسم من أسماء الخير .

وتتنافى الاستقامة مع الغش بجميع ألوانه . ولقد أخرج الرسول ، ﷺ ، الغاش عن دائرة الأمة الإسلامية فقال ﷺ :

---

(١) الفرقان لآيات : ٢١ ٢٣ .

« من غشنا فليس منا » .

وتتنافى الاستقامة مع جميع ألوان الشر ، فإن الله سبحانه حينما يبين أن الاستقامة طريقها وحقيقتها ومظهرها اتباع الأوامر يقول :

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾[1] .

ويقول سبحانه عن أوامره :

﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾[2] .

والفحش كله - وهو الشر بوجه عام - خارج عن دائرة الاستقامة ، والمستقيم بعيد عنه .

وبعد : فإنه لو عرف الناس جزاء المستقيم ، وتيقنوا منه ، وآمنوا به : لما تخلى عن الاستقامة إلا من كان فى عقله دخل ، يقول الله تعالى :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[3] .

والآية عامة مطلقة : أى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فى الدنيا ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فى الآخرة .

إنهم آمنون بحفظ الله على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وهم آمنون بوعد الله فى الآخرة ، فإن الله سبحانه يختم الآية الكريمة بقوله تعالى :

---

(١) هود من آية : ١١٢ .

(٢) الأعراف آية : ٢٨ .

(٣) الأحقاف آية : ١٣ .

﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون ﴾[1].

والمؤمنون إذا استقاموا فقد حققوا الوسائل التي طلبها الله منهم ليستخلفهم في الأرض ، وليمكنهم فيها ، يقول سبحانه :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[2].

وإذا تحققت الخلافة للمؤمنين في الأرض ، وإذا مكّن الله لهم دينهم ، وإذا بدّلهم من بعد خوفهم أمناً ، فإنه سبحانه يكون قد حقق لهم الرغبات ، وأزال عنهم الخوف ، واستجاب دعاءهم .

هذه مقدمة لها تفصيلها فيما يلي إن شاء الله تعالى .

---

(١) الأحقاف آية : ١٤ .

(٢) النور آية : ٥٥ .